

هو بالابتداء" فأى كلام هذا ؟ وما ترجمته (1) ؟ فقد تعب أرباب الشروح والحواشي في إبانته وتوصيل مراده إلى الأذهان، فهل تتسع عقول الطلاب وأوقاتهم في عصرنا الحاضر لفهمه وفهم نظائره وإدراك مراجع الضمائر المتعددة فيه وفي أشباهه (2)؟ وإذا احتملوا هذه فكم قاعدة من نظائرها يحتملونها ؟ وهل تسمح لهم مطالب الحياة الحديثة بذلك وبالرجوع في الفهم إلى الشروح والحواشي وغيرها ؟ وليس سيبويه في هذا بالمتفرد فما أكثر من يشاركونه في أخذناه عليه (3).

نعم إن اللغة الكزة معيبة كلغة المتون، وكذلك اللغة الملتوية والمضغوطة كلغة سيبويه. وهناك اللغة الفضفاضة بغيضة كذلك؛ كلغة صاحب المفصل في أبواب متفرقة.

(1) جاء في كتاب الإمتاع والمؤانسة ج 2 ص 139 ما نصه:

وقف أعرابي على مجلس الأخفش، فسمع كلام أهله في النحو، وما يدخل معه؛ فحار وعجب، وأطرق وسوس، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أبا العرب قال: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا. وقال أعرابي آخر:

ما زال أخذهم في النحو يعجنبي حتى سمعت كلام الزنج والروم

(2) بل إن بعض المتعلمين في العصور القديمة التي ظهرت فيها تلك الكتب لم يفهموها ولم بقدرها على تذليل صعوبتها. فقد نقل الجاحظ في كتابه الحيوان (ج 1 ص 45) أن معترضاً قال لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو؛ فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالناس نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ وما لك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ فقال: أنا رجل لم أضع كتبني ابتغاء وجه الله، ولا زلفي إليها؛ فليست من كتب الدين. ولو وضعتها على الوجه الذي تريدونه لقلت حاجة الناس إلي؛ للسؤال عما لا يفهمونه منها. وأنا غايي الكسب؛ فوضعت بعضها مفهوماً؛ لتدعوهم حلوة ما فهموه إلى التماس فهم ما لم يفهموا. وإنما قد كسبت في هذا التدبير، إذ كنت إلى الكسب ذهبت. . . وهذا سبب آخر عجيب من أسباب صعوبته هذه الكتب النحوية.

وهناك سبب آخر لا يقل عن هذا إثارة للعجب والدهش فقد نقل ابن يعيش في الصفحة الأولى من مقدمة كتابه شرح المفصل ما يأتي: (قال الخليل بن أحمد من الأبواب ما لو شئنا أن نشرحه

حتى يستوي فيه القوى والضعيف لفعالنا ولكن يجب أن يكون للعالم مزية يعدنا!!).

(3) انظر ما نقله الأشموني عن ابن السراج عند الكلام على واو المعية. . . ج 3 ص 231 باب إعراب الفعل. وغيره وغيره. . .